المحاضرة الأولى:

مدخل إلى السرد العربي القديم-المفهوم والنشأة

مفهوم السـرد:

ورد في لسان العرب في مادة سرد "السرد في اللغة تقدِمَه شيء تأتي به متسقا بعضه في إثر بعض متتابعا، يسرُدُ: الحديث سردا. إذا كان جيّد السياق له، وفي صفة كلامه صلى الله عليه وسلم، لم يكن يسرد الحديث سردا يتابعه يستعجل فيه، وسرد القرآن تابع قراءته في حدْرٍ منه والسَّرْدُ: المتتابع، وسرد فلان الصوم إذا والاه وتابعه، ومنه الحديث: كان يسرد الصوم سردا". وهو إذا يعني الاتساق والتواصل.

السرد وبوصفه علما هو مصطلح حديث النشأة وإن اختلفت ترجمته وتعددت، فالأكثر شيوعا مصطلح السرديات Narratologie الذي يعد تزفيتان تودوروف (Tzvetan Todorov) أول من استعمله، وكذلك مصطلح السردية Narrativité.

وإذا رجعنا إلى أصل الكلمة "نجد أن مصطلح Narrative يتعلق بالمصطلح اللاتيني Gnarus، كما أنه يمثل نوعا معينا من المعرفة [...] ويمكن أن يلقي الضوء

على قدر فردي أو مصير جماعي وعلى وحدة النفس أو طبيعة الجماعة".

وبالتالي فالسرد يعني الحكي والإخبار والقص عن فرد أو جماعة أو أي شيء، وهو ما يقتضي وجود موضوع أو قصة تنقل إلى المتلقي وذلك يتم "بواسطة فعل سردي هو السرد، الحكاية والسرد مكونان ضروريان لكل محكي. المحكي خطاب شفوي أو مكتوب يعرض حكاية. والسرد هو الفعل الذي ينتج هذا المحكي.

وقد ورد في موسوعة السرد العربي لعبد الله إبراهيم أن السردية تهتم بالطريقة التي تُسرد وتقدم بها القصة أيا كانت فهي تعنى "باستنباط القواعد الداخلية للأجناس الأدبية واستخراج النظم التي تحكمها وتوجه أبنيتها وتحدد خصائصها وسماتها.

ووصفت بأنها نظام نظري وخصب بالبحث التجريبي. وهي تبحث في مكونات البنية السردية للخطاب من راوٍ ومروي، ومروى له. ولما كانت بنية الخطاب السردي نسيجا قوامه تفاعل تلك المكونات، أمكن التأكيد على أن السردية هي المبحث النقدي الذي يعنى بمظاهر الخطاب السردي أسلوبا وبناء ودلالة".

لا يتوقف السرد عند النصوص الأدبية التي تقوم على عنصر القص شفويا كان أم كتابيا فـ"السرد فعل لا حدود له. يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية، يبدعه الإنسان أينما وجد وحيثما كان،" وهو يتضمن –كما ذكر رولان بارث (Roland Barthes) – الصورة الثابتة والمتحركة، والإماءة، والأسطورة، والحكاية الخرافية، والحكاية على لسان الحيوان، والأقصوصة والملحمة والتاريخ، والمأساة والدّراما والملهاة واللوحة المرسومة، والنقش على الزجاج، والسينما والخبر الصحفي... وهو حاضر بأشكال لانهائية في كل زمان ومكان وفي كل المجتمعات، فلا يوجد شعب بدون سرد.

ولَئِن عرفت الأمم والمجتمعات أشكالا سردية متعددة منذ القدم، فإن السرد كعلم هو وليد العصر الحديث، وذلك عندما ارتبط بالدراسات النقدية للنصوص الأدبية وأصبحت "أدبية السرد بنت العصر الحديث؛ خاصة في شكلها القصصي والروائي.

2–تاريخ السرد العربي القديم واشكاله:

إن المسرودات والمرويات العربية مبثوثة ومتفرقة في مصادر شتى، وكثير من النصوص الموروثة عن الحقب المتقدمة في التاريخ العربي والإسلامي ذات طابع سردي واضح، ويتوسع موضوع السرد ليشمل كل ما روي عن السابقين من أقوال وأفعال وقصص وحكايات وإخبار في كل المجالات والموضوعات، ونجد هذه المادة في الأساطير والخرافات والأخبار وأيام العرب والأمثال والأشعار وفي القران الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، كما نجدها في أدب الرحلات والإسفار والسير المختلفة والقصص الشعبي وفي المقامات...كما نجدها في سياقاتها المختلفة واستعمالاتها المتنوعة فيما نشأ عن قصص وأخبار تتعلق بقيام الدولة الإسلامية والفتوحات وما نتج عنها من توسع جغرافي.

ويمكن القول بأن الأنواع السردية في البيئة العربية وفي البيئات لم تظهر دفعة واحدة جملة وتفصيلا ولا ظهر أي منها ناضجا مكتملا لأول وهلة.

إن السرد العربي صورة جلية لنمو الأشكال الشفوية المتحولة إلى نص مكتوب ، والتي توجد في حقول شتى وسط كتب الأدب المتنوعة ومؤلفات التراجم والسير ونصوص المقامات والأخبار وغيرها، وإن

التداخل في هذه الأشكال السردية بينما هو أدبي وغير أدبي وتاريخي أتاح للسرد أن ينمو وينظم، ويمكن أن يبرز في شكلين هما: المؤلفات ذات المادة التاريخية، والمؤلفات ذات المادة الأدبية المتنوعة

1-المؤلفات التاريخية: وقائع التاريخ الحديث القريب ويعني سرد حلقات وما جاء في الدين الإسلام، وقائع التاريخ البعيد ويشمل الخرافات والأساطير الأولى بما فيها الحروب وأخبار الأولين من شعراء وملوك وتعتمد على المصدر الشفوي

2-المؤلفات ذات المادة الأدبية المتنوعة: ساد هذا النوع فترة طويلة مخلفا مؤلفات بالحديث في أبواب مختلفة للغة وأخبار الشعراء والمجالس الأدبية والتراجم ووقائع حول الملوك والفرسان أو بعض الغرائب والطرائف ففي مؤلفات أدب الكاتب ابن قتيبة والكامل للمبرد والبيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي منطلقات عامة تتمحو حول الأدب تداخل الأشكال السردية وتتفاعل باستمرار مع المصنفات المدرجة ضمن ما احتضنه الفكر العربي التصنيف فصنف أنماط الناس وكتب عن كل صنف فظهرت في أخبار الظرفاء والأذكياء وفي أخبار المجانين والمغفلين والحمقى، وعلى هذا النمط ظهرت كتب في الحيوانات وعجائب المخلوقات وكتب في الخصائص البلدان إلى غير ذلك من الكتب التي تختص بظواهر كافة حيث تطورت ارتبطت بتقاليد المجتمع وتطورت وارتبطت في التقاليد للمجتمع وعاداته وذاكرته، فالتقطت المقامة مادتها الخام من أخبار الشطار وفي علاقاتهم بذاتهم وبالمجتمع، كما سعت السير والحكايات الشعبية والرحلات إلى رصد تفاصيل الحياة.

إن الأشكال الخالصة قائمة بذاتها تمكنت من خلال النصوص المتوفرة ذات النضج الفني إلى التعبير عن مرحلتها وإقرار مجموعة من الخواص المشتركة بينها فضلا عن خصائصها المتنوعة المميزة لها ولسماتها وبعض أهدافها.